ذكرى

روسيا في سوريا: مسابقة الزمن بالنار

مع بدء العام الثاني لأوّل تدخّل عسكري لها بعيداً عن حدودها يتزايد التهديد الموجّه ضدّ القوات الروسية في سوريا بـ«أفغانستان جديدة». وعلى الرغم من نجاحها في قلب مشهد الحرب خلال عام مضى، لا تبدو موسكو قريبةً من النجاح في وضع حدّ نهائي لها. في الوقت نفسه لا يبدو «التراجعُ» أمراً وارداً في حساباتها، حتى الآن

صهيب عنجريني

هل انزلقت روسيا إلى حرب طويلة الأمد في سوريا؟ وما هي الخيارات المُتاحة أمامها في المرحلة المقبلة؟ وهل التراجعُ وارد؟ يبدو طرح هذه التساؤلات بديهيّاً في مطلع العام الثاني للتدخّل العسكري الروسي المباشر، من دون المراهنة على تحصيل إجابات سريعة وحاسمة. ويُنذر المشهد الدولي بتصعيد كبير لا يستهدف هذه المرّة دمشق فحسب، بل يبدو موجّهاً في الدرجة الأولى ضدّ موسكو. وليس من المصادفات في شيء أن تتوالى التصريحات الأميركيّة المتوعّدة لموسكو، وتتزامن مع تسريب أنباء عن حصول المجموعات المسلّحة على أسلحة تدخل المشهد للمرّة الأولى، مع التلويح بإمكانيّة تزويدها بمضادّات طيران أيضاً. الخيارات الروسيّة محسومة لمصلحة مجابهة التّصعيد بتصعيد أكبر يبدو خياراً شبه وحيد، في ظل استحالة العودة إلى الوراء. ويمكن الحديث بثقة عن تغيير في أولويات المرحلة من وجهة نظر موسكو، بعدما أثبتت التطوّرات أنّ محاولات «تحسين شروط الصفقة بالنار» قد فشلت فشلاً ذريعاً. الأحاديث المتداولة في كواليس الساسة في دمشق خلال النصف الأول من عمر التدخل الروسي كانت توحي باقتناع بوجهة النظر الروسيّة التي تمحورت في تلك الفترة حول تحقيق «أنصاف انتصارات» وترك أجزاء غير مكتملة على كل جبهة تصلح ميداناً للتفاوض. اليوم، تشهد هذه الكواليس تبدّلاً واضحاً في فحوى الكلام المتداول نحو «اقتناع موسكو بضرورة تحقيق انتصارات كاسحة تُخرج بعض الجبهات من الحسابات بشكل كليّ (على رأسها جبهة حلب)». كان لانهيار اتفاقين سابقين لـ«وقف الأعمال القتاليّة» من دون أن يُسهم أيٌّ منهما في زيادة أسهم الحلول السياسيّة دور أساسيّ في هذا التحوّل. ولا سيّما مع تهاوي اتفاق «كيري ـ لافروف» وتنصّل واشنطن منه بشكل يبدو أنّه فاجأ موسكو التي رأت في الاتفاق «إنجازاً يُبنى عليه»، إلى درجة أنّ دبلوماسيين روساً كانوا قد بشّروا نظراء سوريين بأنّ «الحلّ وُضعَ على السكّة، وسيقطع شوطاً كبيراً قبل مغادرة (الرئيس الأميركي باراك) أوباما البيت الأبيض» وفقاً لما يقوله مسؤول سوري لـ«الأخبار».

ما الذي تغيّر اليوم؟ «اكتشفوا أنّ الإدارة الأميركية تراوغ كما كنّا نقول دائماً، أو هي على الأقل عاجزة عن اتّخاذ خطوات فعليّة في هذا الوقت»، يقول المصدر نفسه ويستفيض في حديث عن حسابات الانتخابات الأميركية وتأثير الملف السوري عليها. «مسابقة الزمن بالنار»؛ يبدو العنوان الفعليّ للشهور الثلاثة المقبلة وفقاً للرؤية السورية الروسية (والإيرانية بطبيعة الحال). جبهات حلب، وحماة، والغوطة، ودرعا، والقنيطرة تتصدّر حسابات «المحور»، مع عدم استبعاد احتمال التهاب جبهات أخرى. «الحسم في حلب، وإعادة الأمور إلى نصابها في حماة، ومنع أي اختراق في الجنوب، إضافة إلى مزيد من التوغّل في الغوطة» هي أهدافٌ طُلب من غرف العمليّات العسكريّة أخيراً العمل على إنجازها «ضمن إطار زمنيّ صارم». لكنّ الأطر الزمنيّة جرى كسرها في كثير من مفاصل الحرب، بما في ذلك التدخل الروسي نفسه. قبل عام كانت وكالة الأنباء الفرنسيّة تنقل عن مسؤول روسي قوله إنّ «بلاده ستكثف عملياتها في سوريا خلال فترة تراوح بين ثلاثة وأربعة أشهر (مئة يوم)».

التدخّل الروسي أفلح في نقل القوّات السوريّة إلى موقع الهجوم

المسؤول الذي وُصف بالـ«مقرب من الرئيس فلاديمير بوتين» قال حينها إنّ الهدف من هذا الإطار الزمني هو «عدم الغرق في المستنقع السوري». لكنّ المرحلة الأولى من العمليّات استمرّت ضعف تلك المدّة، قبل أن تُعلن موسكو «سحب الجزء الرئيسي من قواتها». جرى سحب القوّات بالفعل، قبل أن يُمهّد انهيار «هدنة شباط» (انهارت كليّاً منتصف نيسان) للعودة بزخم أكبر. بحلول شهر آب دخلت القاذفات الاستراتيجيّة «توبوليف 22» في إجراء بدا حينها أقرب إلى استعراض القوّة، لكنّه كان عنواناً لمرحلة جديدة من التدخل العسكري. اليوم، وإثر انهيار «هدنة الكاستيلّو» ومعها نعيُ نهائيّ مُنتظر لاتفاق «كيري ـ لافروف» تضرب السواحل السورية موعداً مع حاملة الطائرات الروسية «الأدميرال كوزنيتسوف» ناقلةً «المزيد من الأسلحة والطائرات العسكرية». وتقصد الحاملة البحر المتوسط مصحوبةً بسفن خفر وغواصة نووية. ووفقاً لما نقلته وسائل إعلام روسيّة عن مصادر عسكريّة فإنّ حمولة «الأدميرال كوزنيتسوف» تتضمّن عدداً من مقاتلات «سو 33» و«سو 25» و«ميغ 29» وطائرات هليكوبتر «كا 27» و«كا 52» و«كا 31». فيما وصلت بالفعل مجموعات جديدة من «القوّات الخاصّة» وباشرت الانتشار على عدد من الجبهات مع تكتم كامل على أعدادها. وحتّى وقت قريب كانت المعطيات تشير إلى أنّ العدد الإجمالي للعسكريين الروس في سوريا يراوح بين 4000 و5000. وعلى الرغم من السريّة التي يُحاط بها هذا الجانب، غير أنّ الانتخابات البرلمانية الروسيّة شهدت مشاركة «4571 مواطناً روسياً في التصويت في سوريا، من بينهم 4378 عن طريق صناديق اقتراع متنقلة» وفقاً للّجنة الانتخابية المركزية. وعلاوة على الطيارين والخبراء والجنرالات يُشكّل «المتطوعون» عموداً فقريّاً للقوّات الروسيّة البريّة. وينتمي معظم هؤلاء إلى فرقة تُعرف باسم «فرقة فاغنر» نسبة إلى لقب قائدها الكولونيل السابق في «القوّات الروسية الخاصّة» (spetsnaz). وخلال الأسبوع الأخير سُجّل نشاط روسي غير مسبوق في بعض المناطق الساحليّة، ولا سيّما تلك القريبة من الحدود التركيّة، علاوة على النشاط المعهود في القاعدة العسكريّة الروسيّة في طرطوس، ومطار حميميم العسكري. وبات معروفاً أنّ العام الأوّل من التدخل العسكري الروسي قد أفلح في نقل القوّات السوريّة من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم على معظم الجبهات. وانقسمت العمليّات التي خاضها الجيش السوري تحت غطاء روسي إلى شقّين أساسيّين: استهدف الأوّل مناطق سيطرة تنظيم «داعش»، وأسفر عن استعادة مدينة تدمر التاريخيّة (ريف حمص الشرقي) ومساحات واسعة من ريف حلب الشرقي وفك الحصار عن مطار كويرس العسكري. فيما استهدف الشق الثاني مناطق معظم الجماعات المسلّحة، وأسفر عن استعادة أجزاء واسعة من ريفي حلب الجنوبي والشمالي، وفك حصار نبّل والزهراء، إضافة إلى استعادة معظم مناطق ريف اللاذقية الشمالي، وتقدّم كبير في غوطة دمشق.

والشمال الشرقي، والقوات التركية التي تتقدم من الشمال نحو مدينة الباب وريفها، نحو أعتاب حلب الشمالية.

بالنسبة إلى ريفَي الرقة ودير الزور، تعمل واشنطن على إنشاء «منطقة عازلة» بين سوريا والعراق، ومعركة الموصل ضمن هذا الهدف. هذه المنطقة تضيّق الخناق على تحرّك القوات العراقية الحليفة لدمشق، والإيرانية أيضاً، إلى الأراضي السورية. كذلك تُبقي الحرب مستعرة في جبهات الجيش السوري المفتوحة لمزيد من الاستنزاف له في مناطق قتاله الحيوية.

وفي ما يخصّ «الورقة التركية»، ورغم ما قد يحمله تماس قوات الجيش السوري مع القوات التركية الغازية من الشمال نحو «الباب» وريفها من تبعات لا يمكن التكهن بها، فإن واشنطن قد تعمل على ترسيم حدود من نوع آخر في جوار مدينة حلب، وهو ما سيرمي الكرة في ملعب موسكو، ويضع على المحك «التفاهمات» المبرمة مع تركيا بعد المصالحة الأخيرة.

الجنوب

ولا شك في أنّ الخطوات الأميركية المرتقبة على اختلافها، تُبقي ورقة الجنوب السوري مفتوحة، لنكون أمام احتمال تصعيد جديد تدفع به إسرائيل في جبهتي درعا والقنيطرة، على غرار ما حدث قبل 20 يوماً، عندما دعمت تل أبيب وأدارت معركة المسلحين على اختلاف أطيافهم ضد الجيش السوري في المنطقتين المذكورتين.

هذه الأوراق والخيارات الأميركية تضع دمشق وحلفاءها أمام مواجهة مختلفة؛ مواجهة تفرض تدخّلاً و«عناداً» روسياً أكبر، إضافة إلى توسيع الحضور الإيراني مع الحلفاء، خاصة في مدينة حلب وأريافها.

حدثُ تحرير تدمر مثلاً فرض نفسه على سير المعارك وبرهن إمكانية دحر المجموعات الإرهابية تدريجياً، لكن معظم الإعلام الغربي ركّز حينها على الآثار «التي صمدت» مع عرض بارد للخريطة الاستراتيجية لتحريرها. تخيّلوا العناوين البطولية والصور الأسطورية التي كانت ستُنشر في الإعلام الأميركي (وكان سيكررها الإعلام الخليجي) لو أن «التحالف» هو الذي أنقذ تدمر وحافظ على إرثها الحضاري.

الحملة الإعلامية والسياسية استمرت حتى بعد إعلان بوتين سحب معظم القوات الروسية من سوريا بعد ستّة أشهر. تحت صدمة الإعلان الروسي المباغت، انقسمت التصريحات الأميركية بين مشككين بانسحاب فعلي ومعترفين، بمرارة، بأن بوتين «حقق معظم ما أراد من تلك الحملة»، وخصوصاً لجهة «التقدم الميداني للجيش السوري والحفاظ على مؤسسات الدولة السورية وإطالة عمر حكم الرئيس بشار الأسد» و«استعادة الدور الروسي القيادي في المنطقة».

واليوم، بعد سنة على التدخل العسكري الروسي، الجوقة المعادية ما زالت تعترض على كل خطوة تتخذها موسكو وتعمل على تهشيمها، هؤلاء باتوا يدعون الى «عدم التحدّث الى روسيا وقطع المشاورات معها» وآخرون يرون أنها «تشجّع على التقسيم الفدرالي لسوريا وأن تدخلها خدم ذلك»، طبعاً مع تحميلها المسؤولية الكاملة عن إراقة دماء السوريين منذ عام.

لكن من جهة اخرى سُجّلت في الإعلام الأميركي بعض الاعترافات بـ«انجازات لم تكن لتتحقق لولا التدخل العسكري الروسي»، إذ يرى بعض المحللين الغربيين أن هذا التدخل «سيسهّل التوصل الى مصالحة وطنية والى اتفاق سلام لأنه أرسى توازن قوى في المعركة» وأنه كان «الأقوى والأجدى في محاربة داعش على الأرض»، وبأنه «أعاد رسم خريطة علاقات جيّدة لروسيا في المنطقة مع إيران وتركيا وحتى مع إسرائيل». لا أحد، خارج جوقة البروباغنديين، يمكنه أن يتجاهل إنجازات موسكو في سوريا خلال عام، بدءاً من الميدان مروراً بالحفاظ على الحليف، وصولاً الى المكاسب الروسية الخاصة وأبرزها استعراض قوة أسلحتها الجديدة. ولا أحد يمكنه التعامي عن سقوط ضحايا مدنيين بسبب القصف الروسي أيضاً، لكن، شئنا أم أبينا، فإن العالم سينتظر، في كل مرّة، نتائج لقاءات سيرغي لافروف ونظيره الأميركي جون كيري... لعلّهما يعلنان هدنة أطول أو خطوة أخرى باتجاه الحلّ.

العالم سينتظر في كل مرة نتائج لقاءات لافروف وكيري (أ ف ب)